مجلة تراثية فصلية محكمة

المورد

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ جمهورية العراق
المجلد الخامس والعشرون ـ العدد الثاني ـ ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م

WWW.ATTAWEEL.COM

أسعد الديري محمد

المكاتبات الرسمية الاندلسية في عهد الموحدين

د. محمد مجيد السعيد
جامعة أم القرى للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل :

النثر والشعر صنوان متسابقان في حياة الامة العربية منذ أيام ما قبل الاسلام، ثم غدت للكلمة أهمية عظيمة ومنزلة كبيرة لدى العرب اجمع وذلك بنزول القرآن الكريم الذي كان يمثل تحدياً لهم في ميدان لاحبٍ فرسانه وأبطاله ، يتبارى الرجال فيما بينهم بالكلمة المحكمة أو بالعبارة المتقنة أو بالبيت الشعري المبدع الذي يثير أعجاباً او يوجد دهشة او يخلق ابهاراً . فتتناقل الالسن تلك الحكايات والمقولات ذات الافكار والمعاني الطريفة النادرة . واذا كان الشعر ــ كما قيل ــ ميدان العرب ، فالنثر سجلهم الذي دونت فيه كل مآثرهم وأخبارهم ، وكثير من تفاصيل حياتهم ، وبخاصة حياتهم السياسية والعسكرية وما يتعلق بالفتوحات وتنشر الدعوة الاسلامية في أصقاع المعمورة شرقاً وغرباً ، بل ان تاريخ الملوك والسلاطين والامراء وما يدور حولهم يمثل صفحات واسعة وعريضة من تراث الامة العربية ، واذا كان النثر التاريخي لا يدخل ضمن موضوعنا فان المكاتبات الرسمية التي صدرت من مركز الحكم الى الامراء والولاة والحكام والقضاة وغيرهم من اتباع السلطة الذين يمثلونها وينفذون اوامرها وتوجيهاتها ، وكذلك المكاتبات التي صدرت من هؤلاء واولئك لتمثل بالتاكيد جانباً اساسياً في معرفة حركة الدولة ومسيرتها وتوجيهاتها ، ولكنها في الوقت نفسه تدخل ضمن النثر الفني الابداعي لما تتمتع به من خصائص ومميزات فنية وأسلوبية وبلاغية ، وما تحرص عليه من طرائق وقواعد وأسس هي بمثابة مراسيم تقليدية متبعة لدى الكتاب ، لا يحيدون عنها الا ليسلكوا طرقاً او قواعد اخرى احسن منها وأفضل ، ناهيك عما يولون كتاباتهم من عناية ودقة ، وجهد وتثقيف ، محاولين افراغ كل ما لديهم من قدرات فنية وأدبية وما تحتويه جعبتهم من معارف ومعلومات وخبرات ثقافية فيما يكتبونه ويصوغونه لان كتاباتهم تصدر من اعلى شخصية في الدولة او ترد اليه . فالكتابة في مثل هذا الميدان هي مباراة واظهار قدرات وامكانات ، وهي سباق بين فحول ، فالذي يكبو قد لا تتاح له فرصة للوقوف واللحاق بالركب فيخسر كل شيء ، حتى حياته في بعض الاحيان .

وكانت للرسائل والكتب الرسمية اصول محددة من حيث الابتداء والاختتام وذكر اسم المكتوب عنه او المكتوب اليه ، ومن حيث البسملة والدعاء ، ومن حيث البسط والايجاز وفي ترتيب السجعات وعددها وطول العبارة ، وقصرها . ومن حيث الاستشهاد بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية والاقوال المأثورة والاشعار السائرة ، وما يقتضيه كل مقام او موضوع من مستلزمات وأساسيات الكتابة الرسمية والديوانية منها بشكل خاص ، لا يستطيع الكاتب ان يتجاوزها او يغفلها عندما يكتب ، ولقد خصص القلقشندي كتابه « صبح الاعشا في صناعة الانشا » لمعالجة النثر العربي ، وتعرض بالتفصيل لقواعده وأصوله وكل جزئياته المتعلقة به ، وكان للنثر الديواني القسط الاوفى من المؤلف ، والحق ان كاتب الرسائل في كل عصر كان يتمتع في الدولة الاسلامية بمكانة رفيعة يغبطه عليها أقرانه ونظراؤه فموقعه « في ارفع محل وأشرف قدر ، يكاد ان لا يكون عند الملك أخص منه ولا الزم لمجالسته ، .... يلقون اليهم أسرارهم ، ويخصونه بخفايا أمورهم ، ويطلعونهم على ما لم يطلع عليه أخصّ الاخصاء من الوزراء والاهل والولد »[1] .. ولكونه يحظى بهذه المنزلة ويتمتع بهذه المكانة من دست الحكم فانه يمثل اليد اليمنى للسلطان ومستودع

www.attaweel.com

اسراره وشريك ذهنه وفكره ، » وانه اول داخل على الملك وآخر خارج عنه ، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه ، والافضاء اليه بمهماته ، وتقريبه من نفسه في آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته ، واطلاعه على حوادث دولته ومهمات مملكته ، فهو لذلك لا يثق باحد من خاصته ثقته به ، ولا يركن الى قريب ولا نسيب ركونه اليه ، ومحله منه في عائدة خدمته وأثرة دولته محل قلبه الذي يؤامره في مشكل رأيه حتى يتنقح ويراجعه في مهم تدبيره حتى يتضح ، ولسانه الذي يقرر بترغيبه أولياءه على الطاعة والموافقة ، ويستنفر بترهيبه عن المعصية والمشاقة ، ويقرّ باوامره ونواهيه أمور سلطانه ، وينزلها منازلها في متمهد مجالسها ، ويتمكن من سياسة أجناده ، وعمارة بلاده ، ومصلحة رعيته وأجتلاب مودتهم ، واستخلاص نياتهم »[٢] .

ومن هنا تتضح لنا خطورة موقع كاتب الرسائل والصلاحيات المعطاة اليه ، حتى لكانه شريك الملك ، وصنوه ، فباشارة منه او كلمة يرفع أناساً ويحط آخرين ، اما قلمه فانه « لسان الدولة ، وفارس الجولة ، : ولقمان الحكمة ، وترجمان الهمة ، وهو البشير والنذير ، والشفيع والسفير ، به تستخلص الصياصي[٣] ، وتملك النواصي ، ويقتاد العاصي . ويستدني القاصي ، وصاحبه بريء من التبعات ، آمن كيد السعات[٤] » .

وتاسيساً على ما سبق فقد كانت وظيفة كاتب ديوان الرسائل من ارفع الوظائف وأشرفها وأخطرها ، وكان لابد من ان يتصف من يختار لهذا الموقع ، بعدة صفات خلقية وخلقية ، اضافة الى تمكنه من الكتابة وتفوقه في النثر خاصة ، ولقد تعرض القلقشندي لصفات من يرشح لهذه الوظيفة[٥] وأهمها « ان يكون صبيح الوجه ، فصيح الالفاظ ، طلق اللسان ، اصيلاً في قومه رفيعاً في حيه ، وقوراً حليماً مؤثراً للجد على الهزل ، كثير الاناة والرفق ، قليل العجلة والخرق[٦] ، نزر الضحك ، مهيب المجلس ، ساكن الظل ، وقور النادي ، شديد الذكاء ، متوقد الفهم ، حسن الكلام اذا حدّث ، حسن الاصغاء اذا حُدّث ، سريع الرضا ، بطيء الغضب ، رؤوف بأهل الدين ، ساعياً في مصالحهم ، محباً لاهل العلم والادب ، راغباً في نفعهم .... وان يكون من كتمان السرّ بالمنزلة التي لا يدانيه فيها أحد ، ولا يقاربه فيها بشر ، حتى يقرر في نفسه امانة كل حديث يعلمه ويتناس كل خبر يسمعه »[٧] ، وعلى كل حال فان ما ذكر عن اهمية الكاتب ودوره في تسيير دفة الدولة والتاثير في حركتها وتوجهاتها ، وعن خطورة قلمه وما يكتبه عن سيده وما اشترط للمؤهلين لهذه المواقع من سمات وخصائص وصفات جسمانية وعقلية وثقافية ، كل ذلك يشير بصراحة الى اهمية الناثر الرسمي ، والى خطورة الكتابة الرسمية والديوانية منها بشكل خاص في حياة الامم والشعوب ، وما قد تاتي به من خير على الدولة او ما قد توقعه من خراب بها . ومن هنا فاننا نتوقع ان يتصف مثل هذا النثر في تراثنا بالدقة في اختيار العبارات والجمل ، وحسن انتقائها ؛ وبالموضوعية والوضوح وتجنب كل ما من شانه الابتعاد عن ذلك او الخروج عنه .

واذا عدنا الى موضوع بحثنا فانه يتحدد في السنوات التي حكم الموحدون فيها الاندلس حتى خروجهم منها وقيام دولة بني الاحمر في غرناطة بحدود ما بين سنة ٥٤٢ هـ وسنة ٦٤٦ هـ . كما انه يقتصر على معالجة الموروث الكتابي الذي صدر من امراء المؤمنين الموحدين او من احد أبنائهم الملوك والامراء الى ولاة الاندلس وحكامها وشعبها او بالعكس .

ولم نتعرض لمراسلات نثرية وقعت بين دويلات اندلسية اخرى لم تكن تابعة للعرش الموحدي وبين تابعين ، لان ذلك سيوسع رقعة البحث ، على رغم ما في الامر من تداخل ، لان النثر في هذه الفترة الزمنية لا يخرج بطبيعته وأساليبه ورسومه عن الاطار العام الذي يحكم نثر العصر . ولان الكتاب هم انفسهم الذين كتبوا لهؤلاء واولئك ، من امثال ابن الابار وابي المطرف بن عميرة وغيرهما .

تميز عصر الموحدين بانه كان عصراً مشحوناً بالأحداث والصراعات والثورات السياسية والاعمال العسكرية ، والانتصارات والانهزامات ومملوءً بالنشاطات الثقافية والادبية والفكرية ، والدينية . فهو عصر ثرّ وغني بموروثه في مختلف المجالات والميادين ، واننا نعتقد بان للنثر الرسمي قسطاً وافياً من هذا الموروث ، فلقد كانت الرسالة أسلوباً ناجعاً للتواصل ، بل هي من أهم أساليب توصيل أوامر القيادة الى الآخرين وتوجيهاتها وتصوراتها في تسيير دفة الحكم ، وكيفية التعامل مع فئات الشعب ، وكيفية ردع أعداء الامة من الطامعين والثائرين والمتمردين ، ولكن وبنظرة سريعة الى ما هو متوفر من رسائل ومكاتبات رسمية أبان عصر الموحدين ندرك بان هذا الموروث لا يشكل الا جزءاً يسيراً من التراث الادبي لهذه الفترة ، ولا يغطي الا زمناً قصيراً من أزمنتهم

www.attaweel.com

الطويلة التي استغرقت بحدود القرن ، وليس من تفسير لذلك سوى ضياع تلك المراسلات وفقدانها من خزائن المسؤولين والحكام ، مع الوف المؤلفات التي فقدت واندثرت من تراثنا الاندلسي اثناء تعرض البلاد للتخريب والتشريد والاضطهاد ، وما عاشته من ايام سود على ايدي الاسبان المتطرفين الذين بذلوا كل جهدهم وامكاناتهم للقضاء على كل ما يمتّ الى الاسلام والعروبة بصلة ، ومع ذلك فان المتوفر من مكاتبات الموحدين الرسمية يسعفنا في رسم ملامح النثر الاندلسي الرسمي للفترة المذكورة والتعرف على خصائصه وأساليبه وأصول بناء الرسالة ، وما أصابها من تطور او تقهقر خلال ذلك القرن من حكم الموحدين .

ولقد عرفت هذه الفترة كتاباً كباراً وأسماء لامعة من الاندلسيين في ميدان الكتابة الرسمية من أبرزهم : ابو جعفر بن عطية وأخوه ابو عقيل ، وابو عبد الله بن عياش ، وابو الحسن بن عياش ، وابو الحكم بن المرخي ، وابن سعيد المغربي : الاب والابن ، وأبو الحسن الرعيني ، وخلف الفافقي القبتوري ، وأبو المطرف بن عميرة ، وابن الجنان ، وابن الابار .

ويمكن التعرف على تراثهم في المصادر التي نقلت مكاتباتهم ، ومعظم المصادر اورد تلك النصوص في معرض الحديث عن احداث سياسية او اخبار رسمية ، ولكن بعضها الاخر أفرد مؤلفاً مستقلاً لتلك النصوص . فمن المصادر التي احتوت شيئاً من رسائل الموحدين الاندلسية لفترتنا ، نظم الجمان ، المن بالامامة ، البيان المغرب ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القدح المعلى ، الذيل والتكملة ، الانيس المطرب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، نفح الطيب ، أزهار الرياض ، صبح الاعشى ، وغيرها .

اما الكتب التي انفردت لرسائل موحدية اندلسية فمنها كتاب « مجموع رسائل موحدية من انشاء كتاب الدولة المؤمنية » ، « وكتاب رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي من انشاء خلف الفافقي القبتوري » ، ومجموع ابي المطرف ابن عميرة » .

ومن دراسة النصوص المتوفرة للرسائل الموحدية الاندلسية في عصر الموحدين نستطيع ان نصنفها الى صنفين :

الاول : الرسائل التي وجهها الديوان الرئاسي للدولة الذي كان يمثله امير المؤمنين الموحدي ومقره مراكش الى السادة الموحدين من ملوك البلدان ورؤسائها وأمرائها وحكامها او توجه الى الناس والطلبة .

الثاني : الرسائل والكتب التي كانت ترفع من القيادات الدنيا او من الشيوخ والطلبة الى امير المؤمنين ، او ترفع من الاتباع الى القيادات الصغرى من ملوك او امراء او قواد او قضاة .

ولأجل تيسير البحث سوف نتناول كل صنف من صنفي تلك الرسائل والمكاتبات على انفراد ، لنقف عند موضوعاتهما وجوانبهما الشكلية ، من حيث البدايات والنهايات وما بينهما من كلام هو في الواقع صلب الموضوع وجوهره ، ثم نعالج الجوانب الفنية فيهما من حيث اللغة والأسلوب والاقتباس والاطناب والايجاز الى غير ذلك .

الصنف الاول :

من المؤكد ان « الرقاص » او ساعي البريد كان يتنقل بلا انقطاع بين بلاط امير المؤمنين وبين قصور الملوك والامراء والحكام التابعين للدولة الموحدية المنتشرين في أصقاع البلاد ، لنقل التوجيهات والاوامر والبشائر ، وغيرها . ومن المؤكد ايضاً ان ما كتب على امتداد عصر الموحدين الذي قارب المائة عام كان كثيراً وكثيراً جداً ، ولا يشكل النثر الذي بين ايدينا ، المنشور منه او المخطوط ، الا سفراً صغيرا من بين تلك الاسفار الكبيرة الكثيرة . وعلى كل حال ، فان الموجود منه يغني عن المفقود في دراسة النثر الرسمي بعامة والديواني منه بخاصة والتعرف على اساليبه وصيغه وفنيته ، ولكن الجزء المفقود منه افقدنا الشيء الكثير من المعرفة التي نحن بحاجة اليها في الجانب التاريخي والسياسي .

وبمراجعة النصوص الصادرة عن الديوان الموحدي نقف على طبيعة الموضوعات التي كانت تعالجها تلك المكاتبات وتتمحور حولها ، وهي تكاد تدور في موضوعات محددة تقتضيها ادارة الحكم وارادة الحاكم ، مثل الحثّ على الجهاد ، او الحث على التمسك بالدين والدعوة الى التوحيد والهدى ، او بالرفق بالعباد والعدل بين الناس ، او بشارة بفتح مدينة او استرجاع حصن ، او بناء مدينة او طلب بيعة او عقد هدنة ، او غير ذلك من امور تقتضيها الظروف وتدعو اليها مهمات الحكم وتبعاته ومستلزماته .

واذا كانت طبيعة الموضوع الذي كتب النص من اجله تقتضي صيغة ملائمة وأصولًا متبعة في تكوين الاطار العام الشكلي للرسائل وفي بناء مضمونها وحشوها فانه جعل لكل

www.attaweel.com

رسالة تقريباً اطارها الخاص بها وأفردها عن غيرها ، ولكننا ومن اجل ان نلم اطراف البحث نحاول ان نشخص انواع الصيغ والقوالب التي جرت عليها مكاتباتهم الرسمية او صبت فيها ثم بعض ذلك نتعرض لبنائها الداخلي .

من خلال وقفة متانية عند الموروث النثري الصادر عن ديوان أمير المؤمنين الموحدي الى تابعيه في الاندلس ، اتضح لدينا عدد من الصيغ التي سلكتها الرسالة الديوانية الاندلسية آنذاك .. والتي كانت تكوّن اطاراً عاماً يتبع من قبل الكاتبين ويتمسك باصوله وقواعده . وهذه الصيغ هي :

١ . أن تبتديء الرسالة بذكر المكتوب عنه او يلقبه والدعاء له بما يليق ، وبعد ذلك يذكر اسم المكتوب اليه او صفته مع الاشارة الى مكان اقامته ثم يدعى له بما يناسب ، ويؤتى بعد ذلك بتحية الاسلام ، ثم بالبعدية التي تعقبها الصلاة على النبي محمد ، وعلى آله وصحبه ، والترضية عن الامام المهدي المعصوم ، وبعد جمل من الصفات والنعوت للامام المهدي يلج الكاتب صلب الموضوع ، مبتدئاً بفعل الكتابة كان يقول : « كتبناه ، او « كتابنا اليكم » وغير ذلك ، ثم يردفها بجملة دعائية اعتراضية تناسب معنى الكتابة ، قد تقصر وقد تطول ، ويذكر بعدها اسم المكان الذي كتبت به الرسالة مقترناً بالدعاء له بما يناسب ... ثم يؤتى بالموضوع الى آخر الرسالة التي تختم بالسلام .

فمن امثلة ذلك رسالة من انشاء الكاتب ابي جعفر بن عطية : « من امير المؤمنين ــ ايده الله بنصره ، وامده الله بمعونته ــ الى الطلبة والموحدين الذين بغرناطة ــ اعزهم الله وادام كرامتهم بتقواه ــ

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

اما بعد حمد الله الذي على عونه مستند الاعتصام .....

والصلاة على محمد عبده ورسوله موضح سبل السلام والاسلام .....

وعلى آله وصحبه البررة الكرام ، والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ، المخصوص بالعلامات الصادقة والاعلام ، المبشر من ظهور أمره العلي ، وتعيينه المراد المعنى ، بما فاضت تباشيره وسالت اساريره ، على صفحات الليالي والايام .

فانا كتبناه اليكم ــ كتب الله لكم تعرّف الالاء المستجدة ، وبركة المواهب التي هي من بحر عطائه مستمدّة ــ من مذل الموحدين ــ أظهرهم الله ــ بظاهر المهدية ــ (فتحها الله) ــ ووعدُ الله لاوليائه قد فضّ الانجاز ختامه ... الخ ... »[٨] .

وجاء في آخرها « والله يعرف اليمن في ذلك والخيرة ، ويجعله عنوان الاقبال وفاتحة النصر بمنه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

ولقد ذكر القلقشندي هذا اللون من رسوم المكاتبات السلطانية ــ فاوجز رسمه بقوله) « ان تفتتح المكاتبة بلفظ » من فلان الى فلان « ويدعى للمكتوب اليه ثم يقع التخلص الى المقصود باما بعد ، ويؤتى عليه الى آخره ، ويختم بالسلام »[٩] . واعتبر ذلك الاسلوب الاول من بين الاساليب الاربعة التي اشار اليها . وان كان في الاصل قد تحدث عن ثلاثة اساليب فقط[١٠] .

٢ . وقد تحدو كتاباتهم حذو النموذج السابق من حيث البناء الهيكلي ، ولكنها تزيد عنها بأن تبتديء بالبسملة والصلاة على النبي وبالعلامة المباركة التي دخلت الى الرسائل الديوانية لاول مرة في عهدهم[١١] ، ونقصد بالعلامة المباركة عبارة « والحمد لله وحده » ثم يؤتى بآخر الرسالة بتاريخ كتابتها . اما عدا ذلك فانها تجري مجرى النموذج السابق . ومن مكاتباتهم التي تمثل هذا اللون رسالة امير المؤمنين يوسف الى الشيخ الاجل أخيه السيد ابي سعيد واصحابه الطلبة الذين بقرطبة ، حيث بدأها بما نصه « بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمد وآله وسلم ، والحمد لله وحده ، من أمير المؤمنين ... الخ »[١٢] وتاتي بقية الرسوم تباعاً دون اي تغيير حتى يصل الى الختام وفيه يثبت تاريخ كتابة الرسالة الذي هو في هذه الرسالة الثالث من شهر رمضان المعظم سنة احدى وستين وخمس مائة .

٣ . ومن المكاتبات ما اخذ رسماً آخر يبتديء بمخاطبة المكتوب اليهم مباشرة ويشير الى مدينتهم ثم يؤتى بالدعاء لهم بما يناسب ثم بالبعدية وينتقل بعدها مباشرة الى جوهر الموضوع وبدون اية تحميدات او غيرها من ديباجات ورسوم متبعة في مكاتبات أخرى عرفها العصر . ومن تلك المراسلات ، ما كتبه بخطه أمير المؤمنين ادريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالمامون الى اهل اندوجر[١٣] ، جاء فيها « الى الجماعة والكافة من اهل فلانة ، وفاهم الله عثرات الالسنة وأرشدهم الى محو السيئة بالحسنة ، اما بعد فانه قد وصل من قبلكم كتابكم الذي جرد لكم اسهم الانتقاد ، ورماكم من السهاد ، بالداهية الساد ، اتعتذرون من المحال بضعف

www.attaweel.com

الحال ، وقلة الرجال ، اذاً نلحقكم بربات الحجال .... الخ »[١٤]
وهكذا يستمر حتى آخر الرسالة

٤ . وفي صيغة اخرى لبناء الرسالة الرسمية تختلف تماماً في مقدمتها عما عرفناه من رسوم وأساليب فهي ان تستهل الرسالة بالبعدية مباشرة دون بسملة او مقدمة او غير ذلك من استهلالات مستخدمة في مكاتباتهم التي مرت بنا سابقاً ، وقد اشار القلقشندي الى هذا النوع من الرسائل واعتبره على ضربين ، حددهما : بقوله « الضرب الاول تُعقّب البعديةُ بالحمد لله ، ويؤتى على الخطبة الى آخرها ، ثم يتخلص الى المقصود ويختم بالسلام »[١٥] ، اما الضرب الثاني فهو « ان تُعقّب البعدية بذكر المقصود من غير خطبة ثم يؤتى على المقصود الى آخره »[١٦] ومن النثر الذي جاء على الصنف الاول من هذه الطريقة التي تبتدىء بالبعدية دون اية مقدمات اخرى مقرونة بحمد الله وشكره رسالة الكاتب ابي الحسن بن عياش عن الخليفة عبد المؤمن الى طلبة بعض مدن الاندلس يخبرهم فيها بوصول كتابهم في غزواتهم على الروم ، بدأها بقوله « اما بعد حمد الله الذي عمّ بنواله .... ، والرضا عن الامام المعصوم ، والمهدي المعلوم .. فانا كتبناه اليكم ـ كتب الله لكم اعمالاً زاكية نامية ، .... ـ من حضرة مراكش ـ حرسها الله .... الخ »[١٧] ، ويستمر الكاتب في رسالته والجأ صلب غرضه المقصود ليصل الى خاتمتها التي تؤرخ الرسالة .

٥ . ومن المكاتبات ما تبتدىء بالتحميد ثم الصلاة على النبي وآله ثم الترضية عن الامام ، ويعقبها باشارة الى الكتاب ومكان تحريره ليلج بعد ذلك الى جوهر المقصود ، وخير مثال ماكتبه ابو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش عن الأمير محمد الناصر الموحدي مُخبَراً باستيلاء الموحدين على منورقة ويابسة وميورقة بدأها بقوله « الحمد لله فاتح الاغلاق ، ومانع الاعلاق مُمدّ هذه الدعوة الامامية من السبع اطباق ... الخ »[١٨] ، حيث تستمر الرسالة ضمن الرسوم التي اشرنا اليها . ولعل تعليل استفتاحها بالتحميد دون غيره من مستهلات ومقدمات ان الكاتب وهو بغمرة الفرح والابتهاج بتحقيق النصر انصرف أولاً وقبل كل شيء الى تسجيل الحمد والشكر لله تعالى على ما حققه للمسلمين من نصر مبين .

٦ . ولم تقتصر المكاتبات الديوانية على النثر بل كانت بعض مكاتباتهم الرسمية تعتمد الشعر في جزء منها[١٩] او في اجزائها كلها[٢٠] ، والنوع الاخير يكون عبارة عن قصيدة شعرية متكاملة خالية من اي ديباجة نثرية وهي خارجة عن تقاليد مكاتباتهم السلطانية وغير ملتزمة باي رسم من رسومهم ، ومن نماذج هذا اللون من المراسلات : القصيدة الرسالة التي وجهها امير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن الى عرب افريقيا يستدعيهم فيها ويحرضهم على الجهاد وهي من نظم ابن طفيل ، ولما تأخروا عن تلبية الدعوة خاطبهم ثانية بقصيدة اخرى من قول ابن عياش[٢١] وكان مطلع الاولى :

الا فابعثوها همة عربية تحف بأطراف القنا والقواضب

اما مطلع الرسالة الثانية فهو :

قوموا الى العلياء عوج الرواحل
وقودوا الى الهيجاء جرد الصواهل

الصنف الثاني :

بعد ان اتضحت امامنا صيغ المراسلات الرسمية التي كان يصدرها أمير المؤمنين الى أعوانه وتابعيه من ابنائه الأمراء ومن الولاة والقضاة وغيرهم . ننتقل الى معرفة رسوم المكاتبات التي كان يرفعها الامراء والوزراء والولاة وغيرهم الى أمير المؤمنين او الى ملك البلاد الذي يمثل آنذاك السلطة المركزية العليا . ونقف عند انواع الصيغ واشكالها التي كان الكتاب يحرصون عليها ويعتمدونها أسساً وقواعد لما ينشئونه من رسائل . ومن خلال دراسة ما توفر لدينا من نصوص نثرية لفترة الموحدين تمكنّا من تشخيص الرسوم التالية لمكاتباتهم الرسمية :

١ . ان تفتتح الرسالة بلفظ « كتابنا » او « هذا كتابنا » او ما شابه ، ثم يذكر مكان تدوين الخطاب ثم يلج الكاتب صلب الموضوع حتى يأتي الى آخرها . فمن ذلك رسالة ابي جعفر ابن عطية عن ابي حفص الموحدي الى الخليفة امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي وهي التي « اورثته الرتبة العلمية السنية والوزارة الموحدية المؤمنية »[٢٢] ، حيث ابتدأها كاتبها بقوله « كتابنا هذا من وادي ماسة بعدما تجدد من أمر الله الكريم ونصر الله تعالى المعهود المعلوم (وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم) فتح بهر الانوار اشراقاً »[٢٣] .

فالبداية جاءت بدون اية ديباجة من بسملة او صلاة على النبي او ترضية عن الامام المعصوم او دعاء لأمير المؤمنين الى غير ذلك مما سنجده عند كتاب آخرين كتبوا بعد ابن عطية ، وفي هذا النوع يعالج الكاتب المقصود مباشرة ويجعله محوره الاساس ، ولما كان موضوع الرسالة هو بشارة بفتح ،

www.attaweel.com

فكان الكاتب يستعجل الامر ويسابق السطور ليزف البشرى الى الخليفة فيتجاوز المقدمات والتمهيدات .

٢ . وتأخذ رسائل رسمية أخرى ديباجة مختلفة في بعض رسومها عما سبق من نماذج ، ففي رسالة صدرت من المزفيين الى السيد ابي اسحاق الموحدي اخي امير المؤمنين المرتضى ، تتحدث عن رغبة المزفيين في ارسال وفد لتقديم البيعة الى المرتضى[٢٤] تبتدىء هذه الرسالة باسم المرسل اليه كاملاً مع الالقاب : السيد الاجل الاعز ابو اسحاق بن سيدنا الامير الطاهر المرحوم ابي ابراهيم ابن سيدينا الخليفتين الامامين اميري المؤمنين »[٢٥] ثم يدعو لمقامهم بالعلو والبقاء . وبعدها يشير الى المكتوب عنه فينعته بلفظ (خديمهم) ويصفه بما يناسب من خصائص الخادم وصفاته ويأتي باسمه » ..... خديمهم المتمم من خدمتهم ما حق عليه اتمامه ، الملتزم من تعظيم مقامهم واكباره ما يتعين حق الاخلاص له التزامه ... المستنهض لصالح الدين والدنيا عنايتهم الميسرة كل امل عزّ مرامه ، فلان[٢٦] ثم يؤتى بالبعدية والتصلية على النبي وآله ثم الرضا عن الامام المعصوم .. فالدعاء للحضرة الخلافية بما يليق مقترنة باسم الخليفة . .. والدعاء لحضرة سيدنا ومولانا الخليفة الامام المرتضى امير المؤمنين ابي حفص ابن سيدنا الامير الطاهر ابي ابراهيم ابن سيدينا الامامين اميري المؤمنين باطراد السعد الكفيل بذلّ مناويها ، وعز مواليها ... الخ » ليلتف بعد ذلك الى المقصود بلفظ « كتب مصحوباً بالدعاء المقتبس من معاني الكتابة للمقام الاسمى ... وهكذا يستمر الكاتب حتى ختام الرسالة التي تنتهي بالدعاء مُجنّداً لجلالة المكتوب اليه ومقامه العالي .

٣ . ومن مكاتباتهم ما تبتديء بعد البسملة والصلاة على النبي بذكر اسم المكتوب عنه ثم اسم المكتوب اليه والدعاء له بما يليق ثم تحية الاسلام ، وبعد ذلك تأخذ الرسالة مسارات الرسائل الاخرى من حيث البعدية والتحميد بلفظ « اما بعد حمد الله » أو « بعد حمد الله » والصلاة على النبي والترضية والدعاء لأمير المؤمنين او لولي العهد ــ احياناً ــ ثم يؤتى بالمقصود ... الى آخر الرسالة التي تختم بالسلام وبذكر تاريخ انشائها .

منه ما كتبه السيد الاعلى ابو حفص عمر عن نفسه ، معرفاً بفتح « غمارة » الى الشيخ الاجل ابي عبد الله بن الشيخ ابي ابراهيم « بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم ، من عمر بن امير المؤمنين الى الحافظ ابي عبد الله محمد بن ابراهيم ادام الله كرامته بتقواه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد حمد الله والثناء عليه ، والصلاة على محمد رسوله وعلى آله ، والرضا عن الامام المعصوم .... والدعا لسيدنا امير المؤمنين ولولي عهده الامير الاجل ... »[٢٧] وفي مختتمها يقول « والسلام الجزيل عليكم ورحمة الله وبركاته ، كتب في الرابع عشر من شوال سنة ثنتين وستين وخمس مائة » .

٤ . وفي بعض مكاتبات المبايعة يكون الابتداء بعد البسملة بالصلاة على النبي ثم الاشارة الى الامامة وتنعت بما يليق بها من صفات ، ثم يؤتى بالترضية عن الامام المعصوم ، والدعاء لامير المؤمنين ، ثم ينتقل الى المقصود مبتدئاً بلفظ .. أم بعد .. ويختمها بذكر التاريخ ، وهذا غالباً ما يكون في رسائل المبايعات ، ويمكن ان نستشهد له بما كتبه أهل اشبيلية بمبايعة أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وهي من انشاء أحمد بن محمد[٢٨] ، « بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم . الحمد لله الذي جعل الامامة قواماً للحق ونظاماً للخلق ، وتماماً على الذي احسن برعاية العدل والرفق ، وأوجب الاعتصام بطاعتها والانتظام بجماعتها ، والصلاة على محمد نبيه المنيعت بنور الحق الساطع الاضواء .... والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ... والدعاء لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين الخليفة المرتضى متمم انوار الهدى ... وللامام الاعدل الاهدى سيدنا ومولانا امير المؤمنين أبي يعقوب بن امير المؤمنين بدوام النصر والاستيلاء .... اما بعد فانه لما اجتمعت طائفة التوحيد ، وهم الذين تحضرهم من الله حاضرة التوفيق .... على تجديد البيعة المباركة لسيدنا أمير المؤمنين أبي يعقوب ... الخ »[٢٩] .

وتتكامل البيعة بقوله في آخرها » ..... وعلى مضمّن ما نص فوق هذا التزم أهل اشبيلية كافة ، وكتبوا على ذلك شهادتهم في النصف من جمادي الأخيرة سنة ثلاث وستين وخمس مائة » . او ان يؤتى بعد البسملة بقوله من فلان الى فلان ثم يؤتى ببقية الخطوات مثل النموذج السابق ، ومنه رسالة من انشاء أبي الحسن عبد الملك بن عياش جاء فيها .. بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وسلم ، من عمر وعثمان ابني أمير المؤمنين الى الطلبة والاشياخ والاعيان

www.attaweel.com

والكافة باشبيلية أدام الله كرامتهم بتقواه . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته » أما بعد فالحمد لله .... الخ[٢٠] .

٥ . وقد تاخذ رسائل طلب البيعة شكلاً آخر فتبتديء بلفظ من فلان الى فلان ــ دون بسملة ــ ويؤتى بالبعدية وحمد الله وشكره ثم الصلاة على النبي وبعد خطبة قد تطول يلتفت الى الترضية عن الامام المعصوم وعن صاحبه خليفة المسلمين أمير المؤمنين ... ثم الدعاء للمولى الامام أمير المؤمنين ... لينتقل الكاتب بعد ذلك الى جوهر الموضوع الذي هو طلب البيعة مستخدماً لفظ « وهذا كتابنا اليكم » مدخلاً للمقصود ، وغالباً ما يذكر اسم البلد الذي حررت فيه الرسالة مع الدعاء له بما يناسب ، ويمضي الخطاب الى غايته ليختم ــ بالدعاء ثم بالسلام والتاريخ . ومن نماذجه رسالة أنشاها ابو الفضل بن طاهر بن محشرة[٢١] ، عن الامير يعقوب بن أمير المؤمنين من اشبيلية الى الطلبة والموحدين والاشياخ والاعيان بغرناطة .. جاء فيها « من الامير يعقوب بن سيدنا أمير المؤمنين بن سيدنا أمير المؤمنين ــ أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته الى الطلبة والموحدين والاشياخ والاعيان والكافة ــ بغرناطة ــ أدام الله كرامتهم بتقواه وعرفهم عوارف نعماه ورحماه ــ سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . اما بعد فانا نحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله ..... والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم .... وعن صاحبه وخليفته سيدنا الامام أمير المؤمنين القائم من الانتهاض بأمر الله مقامه ... والدعاء لسيدنا ومولانا الامام أمير المؤمنين بن سيدنا أمير المؤمنين ... وهذا كتابنا اليكم ــ أسمعكم الله من بشائر هذا الامر العزيز ما يملأ قلوبكم ارتياحاً ... من حضرة اشبيلية ــ حرسها الله .... الخ »[٢٢] ثم يختتمها بالسلام وبالتاريخ .

٦ . أن تبتديء الرسالة بلفظ « الحضرة » مذيلة بعبارات المديح والثناء ، وبآيات الدعاء ، ثم يؤتى باسم كاتبها مقترناً بصفة العبودية أو الخادمية ، ثم بتحية السلام على الحضرة المعظمة والمقدسة والمفخمة ، ويؤتى بعدها بالتحميد والصلاة على النبي والترضية عن الامام المعصوم ، ثم بالدعاء للمقام العالي بما يناسبه ، وبعدها يؤتى بالمقصود ، وخير مثال على ذلك رسالة كتبها ابن سعيد الاب من اشبيلية الى أبي محمد عبدالواحد بن ابي يعقوب بن عبد المؤمن مهنئاً له بالخلافة حين بويع بها بمراكش ، وكان قبل ذلك كاتباً له ومختصاً به ، جاء فيها « الحضرة العلية ، السامية السنية ، الطاهرة القدسية ، حضرة الامامة ، وجنة دار الاقامة ، مدّ الله على الاسلام ظلالها ، وأنمى في سماء السعادة تمامها وكمالها ، وهنأ المسلمين باستقبال امارتها ، وأدام لهم بركة خلافتها ، عبد أياديها ، وخديم ناديها ، المتوسل بقديم الخدمة المتوصل بعميم النعمة وكريم الحرمة ، المنشد بلسان المسرة ، حين أطلع الزمان هذه الغمرة :

أتته الخلافة منقادة اليه تجر أذيالها
فلم تك تصلح الا له ولم يك يصلح الا لها

موسى بن محمد بن سعيد لا زال هذا الامر العلي محموداً سعيداً ....

سلام الله كريم يخص حضرة الاجلال والتعظيم والتقديس والتفخيم ، ورحمته وبركاته ، وبعد حمد الله .... والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه الكريم .... والرضى عن الامام المهدي المعلوم الذي أفاء الله به على الدين الحنيفي ظلاله ، وأذهب عنه طواغيته وضلاله ، والدعاء للمقام العالي الكريم بالسعد المتوالي والنصر الجسيم .... الخ »[٢٣] .

وهكذا يستقص الكاتب ويزيد في اسباغ النعوت والصفات على الحضرة وساداتها ما أسعفته القواميس وفاضت به قريحته اللغوية .

ويبدو لنا ان مثل هذا الاسلوب قد عرف أواخر الحكم الموحدي ، لاننا لم نجد نظيره قبل ذلك .

وقد يأخذ هذا الرسم أسلوباً آخر بان يؤتى باسم المرسل اليه بعد ذكر الحضرة مقترناً بها ، كان يقال « حضرة سيدنا الخليفة الامام العادل أمير المؤمنين ... »[٢٤] أو ما يشبه ذلك .

٧ . اذا كانت بعض المكاتبات تبتديء بلفظ « الحضرة » فان بعضها الاخر يستخدم لفظ الحضرة مسبوقة بالبسملة والصلاة على رسول الله محمد ــ ص ــ وتُعرّف الحضرة باسم صاحبها أو لقبه ويشار الى اسم المكتوب عنه .... ثم يحيي الكاتب الحضرة بما يليق ثم يقتفي بعد ذلك أسلوب الاخرين في الرسوم الاخرى من الرسالة ، فيؤتى بالحمد والصلاة والترضية ثم يلج الموضوع الرئيس بلفظ « كتب » « أو فكتب » ويذكر اسم البلد الذي كتبت فيه . ليختم بعد ذلك رسالته بالسلام وذكر تاريخ الكتابة .

منه رسالة وجهها الشيخ الاجل أبو عبدالله بن أبي ابراهيم : الى أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن :

www.attaweel.com

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمد وعلى آله وسلم ، الحضرة السامية ، حضرة سيدنا ومولانا الامام الاعدل ، الخليفة الصالح المنصور بالله عزّ وجل أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته ، من ملتزم أوامرهم العلية المتبرك بمعاليهم السنية .... محمد بن أبي ابراهيم : سلام على حضرة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ... الخ »[٢٥] .

وهكذا يستمر الكاتب الى آخر الرسالة .

٨ . ومن رسائلهم ما يبتديء بلفظ « محل » مضافاً الى ما يُعرفه كأن يقال « محل الشيخ الأجل » ويؤتى بوصف يليق به ثم يؤتى باسم المخاطب بالرسالة ... ويختمها بالسلام وبالتوقيع باسم المرسل . من نماذجه ما كتبه محمد بن ابراهيم المواعيني[٢٦] ، أبو القاسم الى السيد محمد بن أبي ابراهيم اسماعيل بن الخليفة أمير المؤمنين مهنئاً حينما تولى أمر اشبيلية حيث بدأها بقوله « محل الشيخ الاجل ، الحبيب المبارك الأفضل ..... محل لا يدانى سموه الأسبق ونموه الأبسق .... وكيف لا وشيخ الموحدين ، وطائفة الحق المهتدين ... أبو ابراهيم أبوه ، أضفى الله عليه ظلاله وأوسع في منازل الزلفى مراتبه وجلاله ، هو قعدده الشامخ ، ومستنده الباذخ ... »[٢٧] . ويقول قبل ختامها : « والسلام الأكرم الأدوم على حضرة الشيخ الأجل الموقر المعظم أبي عبد الله ورحمة الله وبركاته » وأبو عبد الله هذا هو ابن أبي ابراهيم وأخ محمد ابن اسماعيل ثم يأتي بآخرها باسمه منعوتاً بصفات الطاعة والخضوع « ملتزم أمرهم ومعظم حقهم ، رهين شكرهم محمد بن ابراهيم » .

ومن خلال ما تقدم في الصنفين ، الأول والثاني ، نبدو لنا ان لمكاتباتهم الرسمية رسوماً وتقاليد معروفة لا يصح الخروج عليها ، يلتزمون بها ويقتفون آثارها ويحرصون على التمسك بها ، كما غدت لها خصائص ومميزات ذات قيمة ، اعتبرها القلقشندي من الأمور التي انفرد بها الكاتب الاندلسي عن كتاب المشرق والديار المصرية ، ومن تلك الخصائص والسمات « ان المخاطبة تقع للمكتوب اليه بميم الجمع مع الانفراد ، كما تقع الكتابة عن المكتوب عنه بدون الجمع مع الانفراد »[٢٨] ومنها « انهم ملتزمون الدعاء بمعنى الكتبة عند قولهم : كتبنا ... وانهم يترضون عن الخليفة القائمين بدعوته في كتبهم .. وانهم يذكرون اسم المكتوب اليه في أثناء الكتاب ، ويأتي مكاتباتهم على نحو مكاتبات أهل الشرق والديار المصرية ، وكتبهم تختم بالسلام غالباً ، وربما ختمت بالدعاء

ونحوه » ويمكن أن نضيف الى تلك الخصائص : أنهم يترضون أيضاً عن الامام المهدي وينعتونه بالعصمة . بحيث أصبح هذا تقليداً درج عليه جميع كتّابهم وغدا سمة مميزة لمراسلات الموحدين ومخاطباتهم .

الجانب الفني :

في بداية البحث تحدثنا عن منزلة الكتابة الرسمية في هيكل الدولة ، ومكانة القائمين عليها من الكتّاب ، وتعرفنا على أهمية شاغل هذا الموقع وما يجب ان يتصف به من سمات وخصائص ، وما يتميز به من خلق وعلم وثقافة ، وما يتمتع به من امتيازات سلطوية ومادية تجعل منه شخصاً مؤثراً ومشاركاً في رسم كثير من القرارات التي توجه دفة الحكم وتسير أمور الدولة وشؤونها الكبرى . ومن هنا يغدو التنافس والتدافع للحصول على هذا الموقع والوصول اليه ، بأساليب ميكافيلية أو غيرها ، أمراً متوقعاً ، كما هو أمر متوقع أن نجد من هؤلاء الكتاب من دفع رأسه أو حريته ثمناً بحق أو غير حق نتيجة وشاية أو حسد او حقد من الآخرين .

وعلى كل حال فان كتاب الدواوين كانوا حريصين على نوال رضا رؤسائهم وزيادة الحظوة لديهم متوسلين الى ذلك بما يقدمونه من ابداع في مكاتباتهم ، ومن قدرات على فهم ما يدور في خاطر السلطان أو الأمير أو المخدوم وما يرغب في التعبير عنه وايصاله الى الآخرين ممن تكتب اليهم الرسائل ، ولذا فاننا نقدر ان الرسائل الرسمية قمة في الجودة الفنية ، لان منشئها يوظف كل قدراتهم الفنية والعلمية والثقافية وما يمتلكه من معارف لاخراج رسائله في أبهى رونق وأحسن شكل ، وألطف لفظ وأعمق معنى وأوضح دلالة ليثير أولاً دهشة مولاه ولينتزع ، ثانياً ، اعجاب المجلس الثقافي الذي ينصت الى تلك الرسائل ، سواء في الحضرة التي تكتب فيها او الحضرة التي تكتب اليها ، فهي صنعة تحتوي على شيء من المصلحة المتبادلة بين الكاتب والمخدوم ، « مصلحة شخصية للكاتب ، وحرص من قبل السلطان على صيانة الدولة وتوطيد دعائمها وإحكام تدبير شؤونها »[٢٩] .

ولكون كتّاب السلطة يعالجون موضوعات مختلفة ومنوعة ويعبرون عن توجيهات الحكام ووصاياهم وآرائهم في مختلف القضايا والشؤون ، فان طبيعة عملهم تتطلب منهم بالضرورة

www.attaweel.com

ثقافة موسوعية وخزيناً من المعارف والمعلومات التاريخية والدينية والادبية وغيرها ، ليكون الكاتب قادراً ومتمكناً من تناول تلك الموضوعات والتعبير عنها بوضوح ودقة تحققان هدف المكتوب عنه وغايته ، وتصيبان ما في نفسه ، خاصة وان مثل هذه المكاتبات تعالج موضوعات عديدة واغراضاً متنوعة وكثيرة ، كان تعالج وصفاً لمواقع حربية او بشارة بنصر او فتح حصن او عقد سلم او تحريض على الجهاد او طلب المبايعة أو تولية الأمراء على الاصقاع والاقطار او التوجيه السياسي ، أو الحث على التمسك بالدين الحنيف او وصف الاحوال العامة للرعية او التهنئة او التعزية وغيرها من امور لها مساس بالسلطة ويتطلبها الحكم وتقتضيها ظروف الدولة السياسية والدينية والاجتماعية .

ومن هنا نلاحظ ان طبيعة هذه المكاتبات وأساليبها وصيغها ورسومها ليست مثل بقية كتاباتهم النثرية وانما تشمل مختلف مناحي الحياة وشتى ميادينها . وفي وقفة متانية عند دراسة الجوانب الفنية لهذا اللون النثري سيتضح لنا مقدار الجهد الذي يبذله الكاتب في بناء تلك الرسائل ، جهد قد يضر أحياناً ، بسبب مبالغته واسرافه في التصنع[٤٠] بقيمة النثر الفنية ويقلل من جودته وجماليته .

وعلى كل حال فان المتابع للنثر الرسمي خلال فترة الموحدين يمكن ان يلمس خصائص وسمات معينة واضحة تطبع نتاجهم بطابعها ، وتوشم ملامحه بوشمها ، فتعطيه معالم وابعاداً تحدد شخصيته ، الى حد ما ، وتميزه عن غيره من النثر الاندلسي في فترات سابقة أو لاحقة ، فمن ابرز الخصائص والسمات التي تميز بها :

١ . ميل الكتاب الى اضفاء صبغة دينية على رسائلهم ، وتوشيحها بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية وتوشيعها وتعطيرها باخبار السيرة والصحابة ، وتعزيزها باحكام الفقه والشريعة الى غير ذلك مما يشيع جواً دينياً على روح الرسائل ، وبكثر ذلك في المكاتبات التي تعالج موضوعات مثل الحثّ على الجهاد أو الانتصار على الكفار او دعوة الجمهور الى التمسك بالدين والتقيد باحكام الاسلام او في وصف تساقط المدن والقواعد ورثائها والتصبر على محنها . وغيرها من اغراض تتطلب طبيعة موضوعاتها الاستشهاد بالقرآن الكريم او بالاحاديث النبوية والاحكام الفقهية لتعزيز الموقف واسناد الرأي بالحجة القاطعة والقول الفصل .

ولعل أسباب طغيان الروح الدينية على النثر الادبي في هذه الفترة ، اضافة الى مقتضيات طبيعة الموضوع ، تعود الى طبيعة التعليم المعتمدة أساساً في الأندلس التي يتلقاها المتعلم منذ سنواته الأولى والتي تقوم على بناء قاعدة عريضة من الثقافة الاسلامية قوامها القرآن وأحاديث النبي وما يتعلق بهما من علوم ودراسات وأحكام نظمت وقعدت عبر القرون . فكان لكل ذلك تاثير كبير على ذهنية المثقف وطريقة تفكيره ، خلفت آثارها وتركت بصماتها على نتاجه[٤١] كما ان ظروف العصر وما صاحبها من مواقف سياسية ومعارك وصراعات دينية ، وما تمخضت عنه ، وبخاصة أواخر أيام الموحدين ، من سقوط بعض المدن الاسلامية الاندلسية بيد الاسبان ، كان لها دورها وأثرها في نزوع المخاطبات الرسمية نزعة دينية ، « فالعصر كان عصر جهاد وصراع بين الاسلام والصليبيين والفرنج في العالم الاسلامي عامة والاندلس خاصة ، وفي ذلك ما يدعو الى اصطباغ الأدب / شعراً / ونثراً ، بصبغة الحماسة الدينية »[٤٢] .

ينضاف الى ما تقدم سبب آخر يقوي الطابع الديني الذي تتسم به المخاطبات الرسمية هو متانة العلاقة بين الدين والسلطة ، فالسلطان او امير المؤمنين في زمن الموحدين كان يمثل السلطتين الدينية والدنيوية فهو الرئيس الديني كما انه الرئيس السياسي ، ويتجلى ذلك خاصة في مراسلاتهم التي تعالج أمور الشريعة كالحث على التزام قواعد الاسلام واحكامه في المعاملات وفي الحياة اليومية ودعوة الحكام والولاة الى تطبيق الشريعة والعدل بين الناس والدعوة الى الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه الى غير ذلك من موضوعات ذات علاقة بالدين الاسلامي الحنيف[٤٣] .

ويتضح الطابع الديني الاسلامي فيما أوجدوه من رسوم غدت تقاليد وقواعد في كتاباتهم الرسمية والديوانية ، وبخاصة ما تكون عليه مقدمات المكاتبات وخواتمها من مثل البسملة والتحميد والصلاة على النبي محمد ــ ص ــ وآله وصحبه ، والترضية عن الخلفاء أو السادة الرؤساء والترضية عن الامام المعصوم وما تختم به من دعاء وسلام ، كل ذلك يضفي على رسائلهم جواً دينياً ، يضاف اليه ما يعزز انشاءهم وكتاباتهم من نصوص تراثية أو اقتباسات دينية تاتي في حشو رسائلهم حسب مقتضى الحال ، لكنها تاتي بمقدار مقبول وغير طاغ ، ومن أمثلة تلك المراسلات الديوانية التي تعبّقت بجو ديني ، رسالة كتبها ابو جعفر بن عطية عن امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي الى شيخ ــ لم يسمه ــ وجماعة المشيخة بقرطبة :

www.attaweel.com

جاء فيها بعد السلام : « اما بعد فانا نحمد اليكم الله الذي يصل الفتوح لاوليائه بفتوح ، ويلهم الراشدين من عباده الى كل رأي نجيح ، ويقرّب للمتقربين بالتوبة النصوح ، كلّ آم شاسع ومامول نزوح ..... ، ونشهد أن ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة من علم وحدانيته على جلاء من آياته ووضوح .... ، ونصلي على محمد نبيه المصطفى صلاة يستقبل بها من رحمته شطر باب مفتوح ، ونستنزل ببركتها على جنابه الانضر كل سحاب سفوح ، وعلى آله الاكرمين وأصحابه الظافرين من هداه بحظ ربيح ... ونصل الرضوان المستدام على ما وجب الله الاقتداء به والائتمام ، الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بامر الله قيام من كان لله ولرسوله ولكافة المؤمنين خير نصيح ..[١١] » وبعد ذكر المكان الذي كتبت فيه الرسالة يعود الكاتب ليشير الى رسالة وردت الى الخليفة من جماعة المشيخة بقرطبة وفيها ــ كما يفهم من حشو الرسالة ــ بيعة ، فيقول الكاتب ...« وبفضله ــ جلّت قدرته ــ ما استفاض ببركة هذا الامر المبارك من نور قدسيّ وخير معنويّ وحيّ ، وما قرنه بيمنه من امل قصيّ ، ولجبه من شديد قسيّ ويسمعه أولياءه من نبأ انسي ..... واستمسك الراشدون منه بعروة لا تنفصم واعتصموا بما لا ينجى من دعوته الربانيّة ويعصم ، وخاب عن هذه الرحمة الواسعة الناكص المتاخر والالدّ الخصم ، » وهكذا يستمر الكاتب في جوهر موضوعه داعياً أبناء قرطبة الى التمسك بالعروة الوثقى والى طاعة الله ونبيه ومهديه « ... وعضوا على طاعة الله ونبيه ومهديه بالنواجز عضا مسكباً لاباحتها مفيدا واشهدوا الله تعالى على التزامها والدخول تحت إحكامها » . ويؤكد على التمسك بامر المهدي « فهو سبب النجاة والخلاص ، والمأمن من نوائب الانتكاس والانتقاص » فهذه الرسالة بموضوعها وجوها ولغتها لا تخرج عن الجو الديني ، ولكنها تتمتع باسلوب جميل مسجع محبب ، ولغة سليمة سلسة قادرة على الوصول الى المتلقي بيسر وسهولة .

ومثال آخر في استخدام التراث الديني وشواهد التاريخ الاسلامي خلال كتاباتهم السلطانية وبخاصة موضوعات الجهاد والحرب ، رسالة كتبها ابن عياش لامير المؤمنين الناصر تتضمن اعتذاره عن الهزيمة التي حلت به في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ ، جاء فيها « ... كان بين المسلمين وبين أعدائهم يومٌ ذو كواكب نازعت فيه المواكب على المواكب ، وموقف نرجو أن يراه الله لنا وان يقبل فيه عملنا ، اشتد فيه الكفاح وأرخصت فيه الارواح ، لكن أراد الله فكانت العاقبة المطلقة هي لاهل الاسلام والايمان .... هي الحروب قضى الله ان تكون سجالًا ، وان يجعل الله فيها لكل قوم مجالًا ، كذلك كانت في زمن النبي ــ ص ــ والوحي غضّ نضير ، وجبريل من السماء الى الارض في كل وقت سفير ، وكذلك كانت في زمن الخلفاء رضي الله عنهم ، كل ذلك ليعلم الشاكر والصابر عنهم .... فما كان الله ليترك المؤمنين حتى ياخذ أعداءهم أخذاً وبيلًا ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ... »[١٠] فقد استخدم الكاتب الايات القرآنية بمعانيها كما انه أشار الى تاريخ النبي والخلفاء من بعده وما تعرضوا له في حروبهم من اخفاقات وهزائم في بعض الاحيان ، لكنها كانت هزائم تعقبها انتصارات للمسلمين .

٢ . ولا يقف اعتماد الكتاب على مصدر واحد هو الثقافة الدينية في بناء رسائلهم وترصينها وسبك أسلوبها ، بل كانوا يذهلون من الثقافة الادبية والتاريخية كذلك ، فيضمنون مراسلاتهم شعراً وأمثالًا وأقوالًا مقتبسة وحوادث واخباراً تاريخية معروفة وغيرها . وقد اشار القلقشندي الى تقاليد ذلك ورسومه في المشرق والمغرب . حيث قال : « وأما الشعر فيورده حيث يحسن ايراده ، ويمنعه حيث يحسن منعه ، وليس كل مكاتبة يحسن فيها ايراد الشعر ، بل يختلف الحال في ذلك بحسب المكتوب عنه والمكتوب اليه »[١٦] ، ثم قرر انه لا يتمثل بالشعر في المكاتبات الصادرة عن الملوك والصادرة اليهم ممن هم دونهم ولكن « الملوك والخلفاء اذا كتبوا الى من ضاهاهم في أبهة الملك وقاربهم في علو الرتبة فانه لا يمنع التمثل بابيات الشعر فيها ، تطريزاً للنثر بالنظم . وجمعاً بين جنسي الكلام اللذين هما خلاصة مقاصده »[١٧] ، ولكننا في الاندلس والمغرب نجد ان المكاتبات الرسمية لن تتحرج من التمثل بالشعر بل انّ بعضها تجاوز ذلك فكان كله شعراً ــ كما ذكرنا سابقاً ــ أو جزء كبير منه شعراً . بغض النظر عن الجهة التي خوطبت بالرسالة ومستوى المخاطب والمخاطب فمن ذلك رسالة وجهها الخليفة عبد المؤمن بن علي الى أهل اشبيلية ليزف اليهم بشرى فتح مدينة (المهدية) سنة ٥٥٤ هـ . حيث جاء في آخر الكتاب قطعة شعرية تتكون من اثني عشر بيتا يعتقد انها من نظم أمير المؤمنين نفسه وأولها :

ولما قضينا بالمشارق أمرنا وتمّ مراد الله في كل مطلب[١٨]

ومنه ما كتبه السيد الامير ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن امير اشبيلية يستنجد بوالده ويدعوه للقدوم اليه

www.attaweel.com

للقضاء على فتنة ابن مردنيش وقد ضمن رسالته شعراً من نظم الاستاذ أبي العباس ابن سيد المالقي وأولها :

هو الامر أمر الله ليس له ردّ يؤيده أيد ويسمو به جَدّ[٤٩]

ومجموع الابيات خمسة عشر بيتا حسب رواية ابن صاحب الصلاة ، وكان جواب أمير المؤمنين رسالة طويلة فيها شعر على وزن الابيات اللاتي تضمنتها رسالة ولده وقافيتها ولا يعرف من هو كاتب الرسالة او ناظم الشعر . وأول هذه الابيات التي يصل عددها الى خمسة وثلاثين بيتا قوله :

تسنى لاهل الحق نيل مرادهم وطاب لهم فيما يرومونه[٥٠] الورد

وفي رسالة ابن سعيد الاب التي كتبها الى عبد الواحد الموحدي ملك المغرب مهنئاً له بالخلافة حين بويع بها بمراكش ، تضمين لشعرٍ من نظمه ومن نظم غيره من الشعراء[٥١] ، وفيها اقتباس من التراث الأدبي والتاريخي . مثل قوله : « خليفة له النفس المُغرية ، الآراء المَغرية ، والفراسة الإياسية ، ولا ينبئك مثل خبير »[٥٢] .

وفي الرسالة التي وجهها كاتب الخلافة أبو جعفر أحمد بن عطية القضاعي الى مخدومه أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي مستعطفاً اياه اثناء محنته ، كثير من الاتكاء على التراث الأدبي والتاريخي والديني واستحضار لمخزون حافظته وعلومه سخرها كلها لخدمة هذه الرسالة التي كانت شفيعه ورسوله الى الخليفة وقد ختمها بشعر رقيق جميل مؤثر في الاستعطاف[٥٣] .

والرسالة بجملتها عبارة عن تذكير بأحداث تاريخية تشير الى عصيان اصحابها ونكرانهم وكفرهم ولكن أبا جعفر يشير الى انه لو كان واحداً منهم واقترف عظائم اعمالهم المنكرة او كان قد تحمل ذنوب الدنيا كلها وكتب له ان يأتي حضرة الامام المهدي المعصوم لاثذاً وعائذاً لكان ذلك كافياً لسماع عذره وغفران خطيئاته وذنوبه (وأن يمسحها ويعفو عنها) ولكن هذه الرسالة كانت صرخة في واد فلم تنفع ولم تشفع ، ورسالته تذكرنا برسالة ابن زيدون الجدية التي كتبها هو الآخر من السجن الى ابن جهور من حيث الأسلوب واللغة ومن حيث استخدام التاريخ وحوادثه واستحضار ثقافته العامة للوصول الى غرضه الذي هو العفو .

ومثله يكثر ابو المطرف بن عميرة في استخدام التراث في بعض رسائله ، منها رسالته التي كتبها نظماً ونثراً لأحد الرؤساء بشاطبة والتي جاء فيها بكثير من الامثال والاعلام التي تحتاج الى ثقافة تراثية واسعة لفهمها ومعرفة مدلولاتها[٥٤] .

٣ . وامتازت الرسائل الرسمية لهذه الفترة بسمات شكلية مظهرية تعنى باللفظ من حيث جرسه وصوته ، ومن حيث توافق الوحدات الصوتية وتناسق مقاطعها حتى ليغدو نثرهم قريباً الى الشعر وقد يبالغ بعضهم فيلتزم ما لا يلزم أو يلتزم حرفاً واحداً يتكرر في كل مفردات رسالته . ويحلو لبعضهم ان يحقق براعة في صوره النثرية عن طريق استخدام وسائل بلاغية عديدة من جناس أو طباق او تشبيه او استعارة او كناية او غيرها . وكل ذلك يكون مقبولاً ومعقولاً في حالة استخدامه كالملح في الطعام ، ولكنهم كانوا أحياناً يتزيدون منه حتى يغدو جميل نثرهم قبيحا وحسن كلامهم مشوها ، ولطيفه ثقيلا ممجوجا .

وكثيرة هي الرسائل الرسمية التي تعتمد السجع والمحسنات اللفظية الاخرى في موروث فترتنا . من ذلك رسالة كتبها ابو عبد الله بن عيّاش في نزول الناصر على المهدية براً وبحراً واسترجاعها من ايدي الملثمين حيث شبه المدينة بعروس تزف الى فارسها ، وكان مهرها رؤوس المقاتلين الشجعان ، وحناؤها دماءهم ، « ... ولما اجتلينا منها عروسا ، قد مدّ بين يديها بساط الماء ، وتوجت بالهلال وقرطته بالثريا ووشحت بنجوم السماء والسحب تسحب عليها أردانها فترتديها تارة متلثمة ، وطوراً سافرة .... خطبناها فارادت التنبيه على قدرها ، والتوفير في اعلاء مهرها ، ومن خطب الحسناء لم يُغله المهر ، فتمنعت تمنع المقصورات في الخيام ، وأطالت إعمال العامل في خدمتها وتجريد الحسام ، الى أن تحققت عظم موقعها في النفوس ، ورأت كثرة ما ألقى لها من نثار الرؤوس ، جنحت الى الاحصان بعد النشوز ، ورأت اللجاج في الامتناع من قبول الاحسان لا يجوز ، وامتعته على رغم رقيبها بعناقها ورشف رضابها ، فبانت معرّساً ، حيث لا حجال الا من البنود ولا خُلوق الا من دماء ابطال الجنود »[٥٥] .

ولا يخفى ما في الرسالة من جمالية سواء في التصوير والتشبيه او في استخدام المحسنات اللفظية من الجناس والطباق لاضفاء روعة وبهاء اضافيين الى جمالية الصورة .

ونموذج ثان تمثله قطعة من رسالة لأبي جعفر بن عطية كتبها عن أبي حفص عمر ابنتي في موقعة الماسي : « فتح بهر الانوار إشراقاً ، وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبه للاماني

www.attaweel.com

الدائمة جفونا وأحداقاً ، واستغرق غاية الشكر إستغراقاً ، فلا تطيق الالسن لكُنْهِ وصفه إدراكاً ولا لحاقاً ، جمع أشتات الطلب والادب ، وتقلب في النعيم أكرم مُنقلب ، وملأ دلاء الأمل الى عقد الكرب ... الخ »[٥٦] ، وهكذا يستمر في سجعاته متنقلاً من حرف الى حرف ، يبنى عليه ما أسعفته القريحة من سجعات قد تطول وقد تقصر .

وليس من قاعدة ثابتة في سجعهم ، ولكنهم بشكل عام كانوا يكثرون من السجعتين او الثلاث ، ويقلون في الاكثر من ذلك ، وهي الحالة الاخيرة تبدو على نثرهم ظلال الثقل والتكلف .

وفي النموذجين السابقين نلاحظ السجعات المزدوجة والثلاثية والخماسية ، اما الرباعية فمثاله ما جاء في رسالة الامير الاعلى أبي يعقوب الى الخليفة أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي .

« ... ان من الواجب الحتم والمفترض الجزم ، ان يقدر أولاً النعمة بكمالها ، ويمعر خاطره بتفصيل اجمالها ، ويحضر في ذهنه بهجة جمالها ، ويسرح عين اعتباره في مناقل أحوالها ... »[٥٧] .

وقد تصل السجعات في بعض مكاتباتهم الى احدى عشرة سجعة مثل ما جاء في رسالة لأبي الحسين بن عياش عن أمير المؤمنين أبي يعقوب في فتنة غمارة ومقتل سبع بن متحفاد . منها « ... مواقف حَيرته وندمه ، كما ان من صدق في الاعتلاق بحبله والتمسك بعصمه ، وركن الى ذراه وروى الى حرمه ، فقد أخذ بالوثيق من عهود نعمه ، وارتقى في مرتقى فوزه في سببه المتين وسلمه ، ونصلي على محمد رسوله ونبيه الذي ابتعثه بباهر حكمه ، ومعجز كلمه ، فهدى الى نهج الحق وأممه ، ودلّ على سحنته ولُقمه ، وأنار برسالته الجامعة ما غطى من غياهب الضلال وظلمه ، وأبلغها حنيفية . سمحةً الى عرب الانام وعجمه ... »[٥٨] وبعدها يأتي بسجعتين مختلفتين ثم يعود الى السجعة السابقة نفسها ليأتي بثمانٍ متتاليات منها . والملاحظ ان سجعاتهم لا تأخذ على العموم توازناً ولا تناسقاً في عدد مفرداتها وفي أحوالها وانما تتفاوت وتتباين بين سجعة وأخرى .

ومن الملاحظ ان الكاتب ابا عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش قد استخدم الطريقة السابقة نفسها في احدى رسائله ، وذلك بان يأتي بمجموعة جمل ذات سجعة واحدة ثم يأتي بجملتين بسجعة مغايرة ليعود بعدهما الى سجعته الاولى فيبنى عليها عدة جمل قد تزيد من العدد الاول او تنقص ثم يغير النظام بجملتين متوافقتين في سجعهما ولكنهما مغايرتين لما قبلهما وما بعدهما ، ويكرر سجعته الاولى التي بدأ الرسالة بها ... وهكذا ... ومثاله قوله في مقدمة رسالة كتبها عن الأمين محمد الناصر الموحدي « الحمد لله فاتح الاعلاق ، ومانح الاعلاق ، ممد هذه الدعوة الامامية من السبع الطباق ، وناصرها في البحار المرتجة الغوارب النازحة الآفاق ، الواحد الذي فطر هذه العصابة على التظافر في اعزاز دينه والاتفاق ، وأغناهم في كل موطن ومأزق طعنٍ وضربٍ عن السمر العوالي والبيض الرقاق ، والصلاة على سيدنا محمد نبيه ورسوله الناشيء في أشرف المناسب وأكرم الاعراق ، المنبعث لتغيير السنة الجاهلية ولتتميم مكارم الاخلاق »[٥٩]

وبعد هذه السجعات القافية يأتي الكاتب بجملتين على سجعة مغايرة لما سبق فيقول «« المصطفى على حين فترة من الرسالة ، وعموم من الجهالة والضلالة » وبعدهما يعود الى سجعته القافية السابقة ، فيكمل كلامه بقوله » بالايات الساطعة الوضوح النيرة الاشراق ، الداعي الى الله بالمواعظ المستولية على القلوب والسيوف المستعلية على الاعناق ... الخ » وهكذا يستمر الكاتب الى ما شاءت له قريحته ثم يغير سجعته بسجعة مزدوجة لتغيير النبرة وابعاد الملل الذي قد يولده في نفسه او نفس السامع كثرة تكرار السجع على صوت واحد وحرف واحد .

وفي رسالة اخرى له اتبع أسلوباً آخر في طريقة صياغة الرسالة حيث يعتمد سجعة معينة تكون هي الام او العمود الفقري في هيكل الرسالة ، وتنضوي داخل كل سجعة سجعتان فرعيتان ، وبذلك يخلق الكاتب تسجيعاً داخلياً ضمن التسجيع العام للرسالة ، ولكن هذا الاسلوب ليس هو الترصيع الذي أشار اليه الأقدمون لانه يختلف عنه في طريقته[٦٠] . من نماذجه رسالة كتبها ابو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش عن الأمير محمد الناصر الموحدي يقول فيها « الحمد لله الحق بكلماته ، ومبطل الباطل برغم دعاته ، وناصر هذا الحزب في حركاته وسكناته ، ومظهره في مآمٍ يؤمهُ ، وشمتٍ يلمُه ، على عداته ، ومنجده على كل منويّ قريب او قصي ، بصادق عداته ، الواحد الذي قرن النصر المؤزر ، والفتح الميسر ، بعزماته ... الخ »[٦١] ، فقد كانت سجعته الام مبنية على حرف الهاء المسبوق بالتاء والالف ، ولكنه وفي رغبة منه في زيادة الجذب الموسيقي الذي تولده الاصوات المتناسقة المنبعثة عن

www.attaweel.com

السجع أوجد أصواتاً جديدة وجرساً اضافياً بما اوجده من سجعات داخلية هي في النص السابق تتكون من المفردات : يوفه ... يلمه ، مثوي قصي ، المؤزر ، الميسر .

وهذا اللون من النثر المسجوع لا يخلو من تصنع وتكلف تبعدانه من السلاسة والانسيابية .

ويحلو لبعض الكتاب ان يظهر مقدرته اللغوية فيتعمد الاتيان بسجعاته ملتزمة بأكثر من حرف وهو ما يسمى في الشعر « لزوم ما يلزم » ، منه ما جاء في رسالة ابي عقيل عطية بن عطية التي كتبها عن امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي اذ يقول فيها ... « وهم يتذممون من اصرارهم ، ويتوسلون بخلوص اعلانهم وإسرارهم ، ويصرحون بأن ما سلف من سلف ، ليس من إعمارهم ، .... ثم صدروا على بركة الله وقد ظفر بالرحمة آنبهم وتائبهم ، وشكرت مواقع النعمة السنتهم وحقائبهم »[٦٢] ومن وسائلهم في اضفاء بهاء وجمالية على نثرهم تطعيمه بالمحسنات البلاغية ، والبهارات اللفظية التي تخلق تناغمات صوتية ، او تناسقات في مقاطع الكلام ، او اشارات في ذات القارىء او السامع تخلقها وتحفزها ما تولده المفردات من صور وتشبيهات واستعارات يكون للجناس والطباق والتشبيه وغيرها من أساليب بلاغية معروفة قسط واف في بنائها وتشكيلها ... وبما ان ذوق العصر آنذاك كان يطرب لمثل ذلك ، ويعجب به ، فقد أعطى النثار والكتاب هذا الجانب أهمية خاصة وعناية ملحوظة في اساليبهم ، فلا تكاد رسالة من رسائلهم تفتقر الى تلك الالوان او تخلو من تلك الاصباغ والمجملات البيانية والبديعية . وان استخدامها بمقدار وحسب مقتضى الحال يكون جميلًا ورائعاً ، ولقد اكدّ ذلك الدكتور ابن شريفة وهو بصدد الحديث عن خصائص نثر أبي المطرف بن عميرة حيث قال « ان خصائص نثره هي على العموم الخصائص ذاتها التي عرفت في النثر الفني منذ القرن الرابع الهجري وظلت تتطور وتتعقد بعد ذلك ، وهي خصائص تقوم على السجع والجناس بمختلف أشكاله وعلى باقي ضروب البديع والوانه »[٦٣] .

ومن امثلة تذكية نثرهم بالعناصر البلاغية ، وتحسين جرسه وصوره وشكليته قطعة نستلها من رسالة ابي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش من امير المؤمنين الى الطلبة والاشياخ « ... وعند ذلك تحرك الموحدون على ما جاءت به السنة الحنيفية من الاعداد والارهاب ، عالمين بأن لا عدة ولا مُدة ولا قول ولا صول الا بما يفيض عليهم من خزائن رحمة ربهم العزيز الوهاب ، عائذين بالله من الاعجاب بأن يركبوا له طرفاً جامحاً ويقدوا اليه طَرفاً طامحاً »[٦٤] ... فالعبارات السابقة تتزين بما ذكرناه من محسنات بديعية بيانية وسجعية ، تحقق لها شيئاً من الجمالية والرونق ، ومن أمثلة استخدامهم للجناس والطباق بكثرة ما جاء في رسالة خلف الغافقي القبتوري عن ابي القاسم العزفي الى ابي اسحاق الموحدي نقتبس منها العبارات التالية في الغرض المذكور « .... والبركات الكفية لبدد الاسلام بالنظم ، ولشعث الانام باللم ، والنظر الجميل الذي يفزع له فيظل غرب مزعج الفرع ، ويصرف صرف مُذهل الفم ... وبحسب هذه المقدمات التي صرحوا بها وأشاروا ، وشادوا على أصدق الوفاء وأوفى الصدق ما منها شادوا ، ... وعَكَس على من رامه ورماه من الاعداء رومه ورمايته ... ومرمي مروم من مشرك أو شرّ منه في الآجلاب عليه معه مشترك »[٦٥] .

٤ . ومن خواص نثر الموحدين الرسمي ميله الى « الاسهاب والتطويل على عكس ما نرى في الرسائل المرابطية »[٦٦] ، وعند الرجوع الى رسائلهم الديوانية تتأكد لدينا هذه الخاصية ، ويتضح ذلك أكثر في رسائل الخلفاء الى الرعية عندما يكون موضوعها في مجالات الاصلاح والنصيحة والدعوة الى الالتزام بشريعة الاسلام او المحافظة على القوانين وتنفيذها . وغير ذلك من توجيهات وتعليمات تصدرها مراكز السلطة[٦٧] وبالمقابل فاننا نجد رسالة أميرية تميزت بالقصر والايجاز البلاغي الجميل ، فلم تزد عن سطرين هما عبارة عن تظهير لرسالة وردت الى المركز من الفونسو الثامن ملك قشتالة الى أمير المؤمنين المنصور التي تضمنت سخرية واستخفافاً بالموحدين ، فاثارت حفيظتهم ودفعتهم الى الجهاد لردّ كيد المعتدين . فكانت موقعة الارك التي انتصر فيها المسلمون[٦٨] ، اما الجواب فكان ــ كما قلنا ــ تظهيراً للرسالة مختصراً ولكنه بليغ محكم ، اذ أجاب عليه ابن المنصور الأمير محمد الناصر ما نصه « قال الله العظيم : ارجع اليهم فلناتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون ، الجواب ما ترى لا ما تسمع »[٦٩] .

فمقتضى الحال ، وطبيعة الظرف ، وأسلوب التحدي والتطاول التن كتبت بها الرسالة كل ذلك فرض نوع الجواب وطريقته ورسمه ، فكان جواباً موفقاً صادقاً معبراً عما جاشت به الصدور وتزاحمت به المشاعر .

www.attaweel.com

هوامش

١ . القلقشندي : صبح الاعشى (تحقيق محمد حسين شمس الدين) ١ / ١٣٥ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧ .
٢ . نفسه .
٣ . الصياصي : الحصون .
٤ . القلقشندي : صبح الاعشى ١ / ٨٧ نص منقول عن مقامات الحريري .
٥ . انظر : نفسه ١ / ١٣٩ وما بعدها .
٦ . الاخرق : هو الاحمق .
٧ . القلقشندي : صبح الاعشى ١ / ١٣٩ ــ ١٤١ .
٨ . لافي بروفانسال : مجموع رسائل موحدية من انشاء الدولة المؤمنية ص ٩٥ وما بعدها . المطبعة الاقتصادية ــ الرباط ١٩٤١ .
٩ . القلقشندي : صبح الاعشى (٧ / ٣١) ٧ / ٣١ .
١٠ . انظر : نفسه / هامش ٧ / ٣١ .
١١ . ذكر الدكتور عبد الهادي التازي في هامش كتاب « المن بالامامة » أن الموحدين اتفقوا على وضع علامة « الحمد لله وحده » منذ شهر رمضان ٥٦١ هـ ، وذلك على ما يقول ابن خلدون التداء بالامام : هامش صفحة ٧٨ .
١٢ . عبد الملك بن صاحب الصلاة : المن بالامامة (تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي ص ٢٢٥ ، طـ ٣ / دار الغرب الاسلامي بيروت ، لبنان ١٩٨٧ .
١٣ . اندوجر : هي بلدة أندلسية تقع في شمال قرطبة على نهر الوادي الكبير ، وبالاسبانية ANDUJAR (انظر : ابن الخطيب : الاحاطة هامش ١ / ٤٢٢) .
١٤ . لسان الدين ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة (تحقيق محمد عبد الله عنان) ١ / ٤٢٢ طبعة الخانجي ــ القاهرة ١٩٧٣ .
١٥ . القلقشندي : صبح الاعشى ٧ / ٣٤ .
١٦ . نفسه ٧ / ٣٧ ، وانظر الانموذج الذي ذكره القلقشندي لهذا النوع من المكاتبات في الصفحة نفسها .
١٧ . إ . ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ص ٩٣ .
١٨ . نفسه ٢٤١ .
١٩ . عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب (تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي) ص ٢٢٥ ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة طـ ١ ١٩٤٩ م ــ ١٣٦٨ هـ ، ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٧٢ ، ٧٦ .
٢٠ . ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ــ قسم الموحدين ــ (تحقيق الاساتذة محمد ابراهيم الكتاني ، محمد بن تاويت ، محمد زنبير ، عبد القادر زمامة) ص ١١٥ طـ / دار الغرب الاسلامي ــ بيروت ١٩٨٥ ، ١٤٠٦ هـ .
٢١ . نفسه ١١٥ ، ١١٦ .
٢٢ . المقري : نفح الطيب (تحقيق د . احسان عباس) ٥ / ١٨٧ ، طـ . دار صادر بيروت ١٩٦٨ ، ١٣٨٨ هـ .
٢٣ . نفسه .
٢٤ . انظر : خلف النافلي القبتوري : رسائل ديوانية من سبتة في العهد المرني (تحقيق دكتور محمد الحبيب الهيلة) ص ٤٨ .
٢٥ . نفسه ص ١٠٩ .
٢٦ . نفسه ، ولم يذكر الاسم هنا في الاصل ، ويبدو ان الناسخ أسقطه عمداً ، ولكن الرسالة ، وحسبما هو معروف من أصل الكتاب انها مرسلة من قبل ابي القاسم محمد بن احمد المرني ملك سبتة .
وانظر رسالة اخرى مماثلة لها في رسومها ، ذكر فيها اسم مرسلها كاملاً ، في كتاب ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٣٠٤ .
٢٧ . ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٢٤٤ ، ص ٢٧٧ .
٢٨ . هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الرعيني الاشبيلي ، كان على صلة بالموحدين ، وقد توفي أواخر سنة ٦٠٤ هـ ، (انظر : المن بالامامة هامش صفحة ٢٥٩).
٢٩ . ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٢٥٩ .
٣٠ . نفسه ٢٠١ .
٣١ . ابن محشرة : هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي من اهل بجاية ، وكان كاتباً لعبد المؤمن بن علي في مراكش ، ولد بحدود سنة ٥٤١ هـ ، وتوفي سنة ٥٩٨ هـ (انظر :
إ . ٣٢ ــ نفسه ص ١٥٨ ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ١٥٨ .
٣٣ . المقري : النفح ٢ / ٣٦٢ . وانظر مثال آخر في : القبتوري : رسائل ديوانية ص ١١٥ .
٣٤ . المراكشي : البيان المغرب ــ قسم الموحدين ــ ص / ٢٧١ .
٣٥ . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ٢٦٣ .
٣٦ . محمد بن ابراهيم بن خيرة المواعيني ابو القاسم من اهل قرطبة وسكن اشبيلية ، وله تواليف ، توفي نحو سنة ٥٧٠ هـ (انظر : ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ، هامش صفحة ٢٢٤) .
٣٧ . ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٢٢٤ .
٣٨ . القلقشندي : صبح الاعشى ٧ / ٣٠ ــ ٣١ .
٣٩ . البشير المجذوب : حول مفهوم النثر الفني ص ١٤ الدار العربية للكتاب تونس ١٩٨٢ .

www.attaweel.com

٤٠ . د . شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٣٧ طـ ٤ دار المعارف بمصر ١٩٦٥ .
٤١ . محمد بن شريفة : أبو المطرف احمد بن عميرة المخزومي ص ١٨٠ منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ـــ الرباط ١٩٦٦ .
٤٢ . نفسه ١٨١ .
٤٣ . انظر : د . حسين نصار ، نشأة الكتابة ص ٩٧ ، طـ ٢ / ١٩٦٦ مكتبة النهضة المصرية .
٤٤ . إ . ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ١٣ .
٤٥ . المراكشي : البيان المغرب . قسم الموحدين ص ٢٦٤ .
٤٦ . القلقشندي : صبح الاعشى (تحقيق د . يوسف علي طويل) ٦ / ٢٩٦ .
٤٧ . نفسه ٦ / ٢٩٥ .
٤٨ . ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٧٣ .
٤٩ . نفسه ٧٦ .
٥٠ . نفسه ٨٠ .
٥١ . انظر الرسالة في : المقري : النفح ٢ / ٣٦٢ وما بعدها .
٥٢ . نفسه ٢ / ٣٦٤ .
٥٣ . انظر الرسالة في : نفسه ٥ / ١٨٤ ، ابن الخطيب : الاحاطة ١ / ٢٦٧ طـ ٢ القاهرة ١٩٧٣ .
٥٤ . ابن سعيد المغربي : القدح المعلى (تحقيق ابراهيم الابياري) ص / ٥٠ طـ ٢ . دار الكتب الاسلامية ٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
٥٥ . ابن الخطيب : الاحاطة ٢ / ٤٨٦ .
٥٦ . ابن الابار : اعتاب الكتاب (تحقيق الدكتور صالح الاشتر ص ٢٢٧ . طبعة مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٦١ ، المقري : النفح ٥ / ١٨٧ .
٥٧ . ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٧٨ .
٥٨ . نفسه ٢٣٤ .
٥٩ . ١ . ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ٢٤١ .
٦٠ . انظر : ابن شريفة : أبو المطرف ٢١٩ .
٦١ . ١ . ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ٢٤٨ ـــ ٢٤٩ .
٦١ . نفسه ٨٤ .
٦٣ . ابن شريفة : أبو المطرف ٢١٨ .
٦٤ . ١ . ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ٢٣١ .
٦٥ . انظر الرسالة في : القبتوري : رسائل ديوانية ص ١١٥ ـــ ١٢١ .
٦٦ . ابن شريفة : ابو المطرف ١٨١ .
٦٧ . انظر مثلاً : ابن القطان : نظم الجمان (تحقيق الدكتور محمود علي مكي ـــ الرباط ص ١٥٠ ـــ ١٦٧ ، رسالة طويلة لابن عطية اورد فيها اطاراً عاماً لسياسة الدولة وأوامرها وتوصياتها وتوجيهاتها لابناء الاندلس .
وكذلك : إ . ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ١٢٦ ـــ ١٣٨ في الفرض نفسه .
٦٨ . انظر : علي ابن أبي زرع : الانيس المطرب ص ٢٣٠ وما بعدها طبعة دار المنصور ـــ الرباط ١٩٧٣ .
٦٩ . نفسه ٢٢١ والاية من سورة النمل رقم ٣٧ .

المصادر والمراجع

١ . ابن الابار : ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن القضاعي (ت ٦٥٨ هـ) .
اعتاب الكتاب : تحقيق الدكتور صالح الاشتر بمة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦١ .
١٩٧٣ . المنسوب خطأ لابن ابي زرع
٢ . ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد اللتمساني (ت ٧٧٦ هـ) : الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، طبعة الخانجي ـــ القاهرة ١٩٧٣ .
٣ . ابن سعيد المغربي : ابو الحسن علي بن موسى بن سعيد ، (ت ٦٨٥ هـ) اختصار القدح المعلى : تحقيق ابراهيم الابياري طـ / ٢ دار الكتب الاسلامية ١٤٠٠ هـ ـــ ١٩٨٠ م .
٤ . ابن صاحب الصلاة عبد الملك : المن بالامامة : تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي ، دار الغرب الاسلامي بيروت ـــ لبنان ١٩٨٧ .
٥ ـــ ابن عبد الرحيم ، ابو محمد صالح : الانيس المطرب ، مطبعة دار المنصور للطباعة ـــ الرباط ١٩٤٣ ، ونسب للكتاب خطأ الى ابن أبي زرع
٦ . ابن عذاري المراكشي : ابو العباس احمد بن محمد (كان موجوداً سنة ٧٠٦ هـ) : البيان المغرب في اخبار ملوك الاندلس والمغرب ، قسم الموحدين ـــ تحقيق الاساتذة (محمد ابراهيم الكتاني ، محمد بن تاويت محمد زنبير ، عبد القادر زمامة) دار المغرب الاسلامي ـــ بيروت ١٩٨٥ ـــ ١٤٠٦ هـ .
٧ . ابن القطان : نظم الجمان (جزء منه) تحقيق الدكتور محمود علي مكي ـــ الرباط .
٨ . إ . ليفي بروفنسال ، مجموع رسائل موحدية من انشاء الدولة

www.attaweel.com

المؤمنية ، المطبعة الاقتصادية ـــ الرباط ١٩٤١ .
٩ . البشير المجذوب : حول مفهوم النثر الفني ، الدار العربية للكتاب ـــ تونس ١٩٨٢ .
١٠ . حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية ، طـ / ٢ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ .
١١ . شوقي ضيف / الفن ومذاهبه في النثر العربي ، طـ / ٤ دار المعارف بمصر ١٩٦٥ .
١٢ . القبتوري : خلف الدافقي : رسائل ديوانية من سبتة في العهد المرني ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٩٧٩ ـــ ١٣٩٩ هـ .
١٣ . القلقشندي : أبو العباس احمد بن علي بن احمد (ت ٨٢١ هـ) ، صبح الاعشى في صناعة الانشا / الجزء الاول والسابع ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، طبعة دار الكتب العلمية / بيروت ١٩٨٧ ، الجزء السادس : تحقيق الدكتور يوسف علي الطويل .
١٤ . محمد بن شريفة : أبو المطرف احمد بن عميرة المخزومي ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ـــ الرباط ١٩٦٦ .
١٥ . المراكشي : عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧ هـ) / المعجب في تلخيص اخبار المغرب / تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي .
مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٩ م ـــ ١٣٦٨ هـ .
١٦ . المقري : احمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ) ، نفح الطيب : تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ، دار صادر ١٩٦٨ .

• • • •

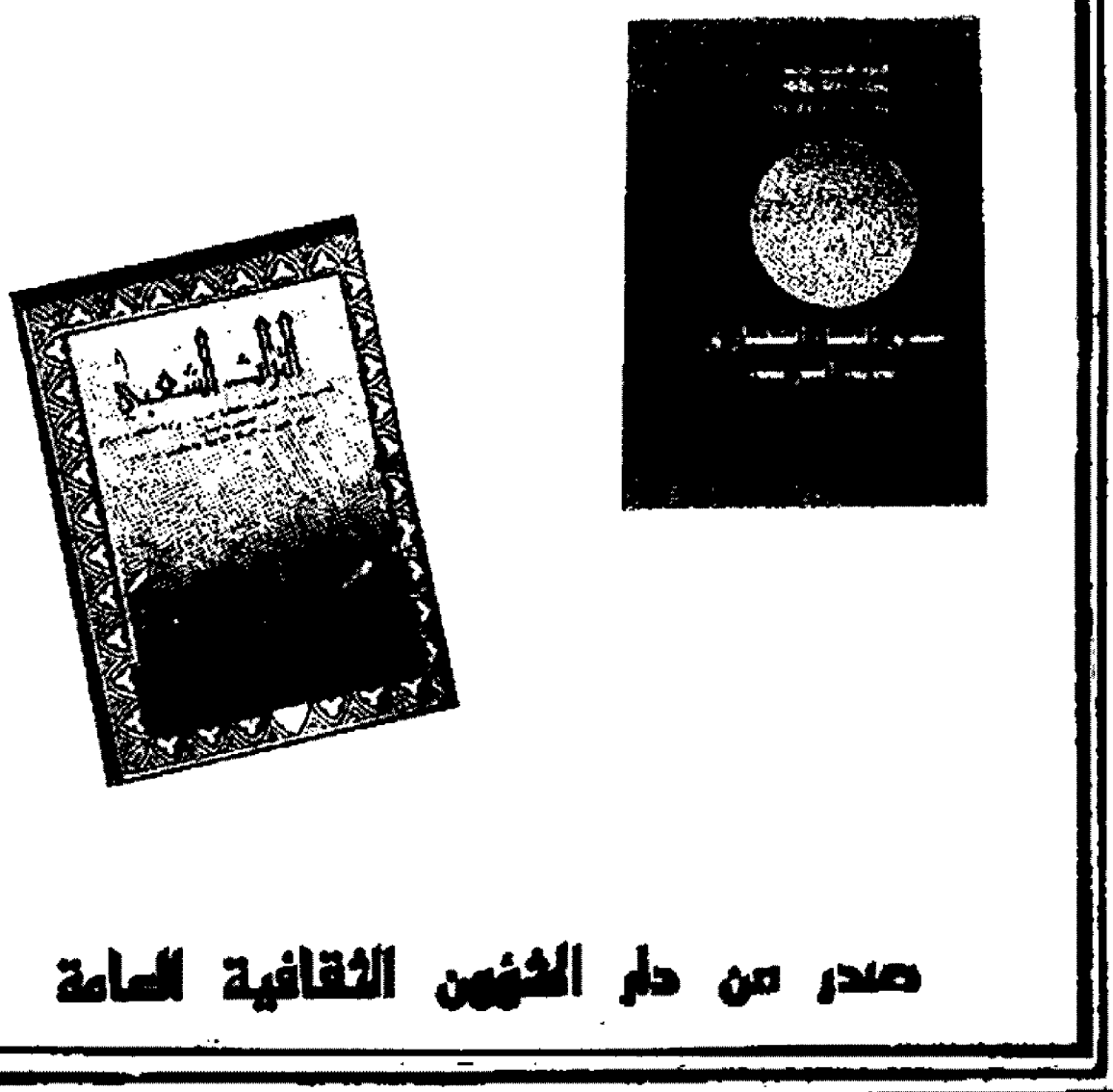

صدر عن دار الشؤون الثقافية العامة

www.attaweel.com